الفصل السابع

البحث عن الثروة

كل إنسان صانع لحظه.

سير رتشارد ستيل ـ التيتلر

في 15 أيلول انطلق تانكرد مع ما يقارب من ثلاثمائة رجل معظمهم من الفرسان وتبعه بلدوين الذي رافقه ابن عمه وسميه أي بلدوين أوف لي بورغ ومعهما خمسمائة فارس، وألفين من رجال المشاة، وتحركوا ببطء أشد من قوة تانكرد الصغيرة، وشقوا طريقهم المختلفة قليلاً فوق الجبال إلى السهل الساحلي، وكان الهدف من ذلك الاستيلاء على مدينة طرسوس المدينة الهامة في كيليكيا حيث ولد القديس بول ووصلها تانكرد ليجدها محتلة من قبل القوات التركية، التي خرجت لملاقاته في قوة، فاندحرت بقسوة إلى داخل المدينة، وسر السكان الذين كان معظمهم من المسيحيين لمشهد تحريرهم من الأتراك، وأرسلوا الرسل إلى تانكرد يناشدونه السيطرة على المدينة بأسرع وقت ممكن، ولكن قوته كانت صغيرة وليس قوية إلى حد كاف للانقضاض على تحصيناتها، ولهذا فضل أن ينتظر وصول بلدوين.

ولم يتعين عليه الانتظار طويلاً فبعد ثلاثة أيام من وصوله، قدم بلدوين وجيشه يزحفون ببطء عبر السهل، تلفهم غمامة من الغبار، فأوقع منظرهم الرعب في قلوب الأتراك، وقرروا في الحال الخروج من المدينة، رغم أنه كان لا يزال هناك متسع من الوقت للقيام بذلك، وما أن خيم الظلام على المدينة حتى انطلقوا هاربين، وعلى الفور فتح أبناء مدينة طرسوس البوابات وأسرعوا

لأخبا تانكرد، إن الحامية قد ذهبت، ودعوه ليدخلها منتصراً، فقام بذلك دون انتظار بلدوين، وعندما أشرقت شمس الصباح في اليوم التالي، استقبلت راية تانكرد المرفرفة فوق المدينة بافتخارٍ وتحدٍ لبلدوين ورجاله الذي لم يرتضوا بما حدث.

ولم يكن لدى بلدوين نية في السماح لتانكرد بالاحتفاظ بمدينة طرسوس وبكل برودة أعصاب طالب بوجوب تسليم المدينة له في الحال، ولما كان لديه قوة أكبر بعدة مرات مما كان يقف وراء تانكرد، وجد الأخير أن ليس لديه إلّا أن يفعل ما طلب منه، رغم أنه كان غاضباً لكنه سلم المدينة لبلدوين، وخرج ورجاله من المدينة، حيث كانت ثمة مدن أخرى تنتظر انتزاعها من الأتراك، وسوف يقوم بذلك دون اللجوء إلى مساعدة بلدوين ليأخذها منه فيما بعد.

ولم يكن لدى بلدوين نية في تسليم طرسوس إلى الإمبراطور ألكسيوس إلّا بقدر سماحه لتانكرد بالاحتفاظ بها، ورغم يمين ولائه ووعده بإرجاع جميع الأراضي البيزنطية لأصحابها السابقين، قصد الاحتفاظ بالمدينة كمركز للحملة التي رغب في إقامتها لنفسه، ولذلك، فعندما وصل ثلاثمائة نورماندي أمام بوابات المدينة قائلين إنهم قدموا لدعم تانكرد رفض بلدوين السماح لهم بدخولها، وقال لهم إن تانكرد رحل، ومن الأفضل لهم أن يتبعوه، وكان الوقت مساءً فقرر النورمانديون ضرب خيامهم خارج أسوار المدينة لتلك الليلة، ولكن لم يكن بلدوين أو النورمانديون يعلمون أن الحامية التركية كانت لا تزال في جوار المدينة، وقدر للنورمانديين أن يكتشفوا أن الأتراك لم يرحلوا بعيداً، بل تسللوا تحت جناح الليل خلفهم وذبحوا كل فرد منهم.

وفوجيء الصليبيون بموتهم، وأسقط بيد بلدوين لكثر الانتقاد من رجاله لعدم الأذن لهم بدخول المدينة، وأصبح خزيهم أشد مرارة عندما قرر بلدوين بعد فترة من الزمن التخلي عن المدينة لبعض قراصنة المسيحيين الذين صدف وكانوا في جوارها، وتساءل الناس لماذا مات النورمانديون إذا لم يكن لدى بلدوين نية في الاحتفاظ بطرسوس أكثر من يوم أو يومين. على حين قصد

تسليمها لتلك الشرذمة القادمة من البحر.؟ ولعل سبب ما فعل في التخلي عن المدينة، كان وقوعها وسط مستنقعات ملاريا، بالإضافة إلى مناخها الحار إلى حد مؤذ، أو لعله توصل إلى نتيجة وهي أنه لا تزال أمامه مدن أفضل تنتظر أن يفتحها في أقصى الشرق، كما سبق لنا نكرد أن اكتشف ذلك، ومهما تكن دواعيه فقد خرج من طرسوس وسار في أثر تانكرد.

والتقى الجمعان في مكان دعي المصيصة على مسافة أميال قليلة شرق طرسوس، ولدى سماعه خبر وصول بلدوين قام تانكرد ورجاله بهجوم مباشر عليه، ولكن بلدوين كان أقوى فصد الهجوم بشكل حاسم، وكان ذلك عملاً يتسم بالحماقة، وعندما سمعت الهيئة الرئيسية للصليبيين وقادتهم بهذا النزاع غير اللائق بين الأخوة المسيحيين غضبوا، لأن مثل هذا الخلاف غير محتمل وأجبر الرأي الشعبي كلاً من بلدوين وتانكرد على الدخول في صلح مكروه، وأمل الجميع في نسيان هذا الحدث المشين، ولكن البيزنطيين لم ينسوه، لأنه أظهر بوضوح تماماً أن اثنين على الأقل من القادة الصليبيين الذي أقسموا يمين الولاء للامبراطور، كانا مهتمين في إقامة ممالك مستقلة لأنفسهما، في أراضٍ كانت بيزنطية لقرون عديدة قبل مجيء الأتراك، رغم ما قطعوه من وعود لإرجاعها إلى سادتها الشرعيين.

وبعدما سوى بلدوين خلافه مع تانكرد وأسرع الخطى للعودة للانضمام إلى الجيش الرئيسي الذي عبر في ذلك الوقت جبال طوروس، مقترباً من الحدود السورية، سمع بمرض زوجته وأطفاله، ثم ماتت زوجته قبل أن يدركها، ولحق بها أطفاله بعد ذلك، ومع ذلك لم يدع تلك الحادثة تؤثر على تصميمه لما قدم إليه، ومرة أخرى فارق الجيش الرئيسي بقوته الخاصة، رغم أنها أصبحت أصغر مما كانت، عندما قادها إلى طرسوس، وتحرك شرقاً باتجاه نهر الفرات، خلال بلاد يسكنها الأرمن، الذين كانوا جميعاً مسيحيين، وعندما اقترب قام الأرمن ضد الأتراك الذين كانوا يكرهونهم، وقاموا بتذبيحهم وهم في حالة ابتهاج عظيم، واستقبلوا الصليبيين بأقصى حد من

الابتهاج، كمنقذين قادمين من الرب لتخليصهم من هيمنتهم، وانضم إليه بعض القادة الأرمن المحبين للقتال مع قواتهم المحلية، وهكذا أصبح جيش بلدوين الصغير أقوى عندما تابع سيره، ولم يمض وقت طويل قبل أن استولى على جميع البلاد حتى النهر، ووضع حاميتين من الأرمن في قلعتين استراتيجيتين تسيطر أحداهما على الطريق إلى أنطاكية، بينما تسيطر الثانية على نقطة عبور نهر الفرات عند جرابلس، وبعد ذلك بوقت قصير، ولدى دعوة أمير الرُّها الأرمني المستقل له، ذلك أن كان خائفاً مما قد يفعله الأتراك عن طريق الثأر من جديد إذا لم يقم بالحرب ضد بلدوين، وخائفاً أكثر مما سيفعله بلدوين إن هو قام بذلك، ـ وعليه عبر بلدوين النهر، ووافق أن يصبح ابن الرجل المتبنى، وحاكم الرها المتعاون معه، وكانت مراسم التبني فريدة، فقد تعرى بلدوين والأمير الأرمني، الذي كان اسمه طوروس إلى أوسطهم، ولبسا معاً قميصاً كبيراً، وبعزلتهما الخاصة حكا صدريهما العاريين مع بعضهما، ومع ذلك لم ينته الأمر فبعد تنفيذ طوروس للمراسم، كان من المتوقع أن يقوم بلدوين بتكرير ذلك مع زوجته، وهو إجراء لابد يظن فيه المرء بعض الأوجه المربكة.

وكحاكم متعاون لمنطقة الرها مع طوروس نال بلدوين نصف المملكة، وما هي إلا مدة قصيرة حتى تعين أن يأخذها كلها، وكان طوروس حاكماً غير شعبي لدى سكان منطقة الرها الذين تاقوا منذ سنين لأن يتخلصوا منه والبحث عن شخص آخر يحل مكانه، ولذا كان وصول بلدوين تغييراً للوضع كله، ولم يمض كثير من الوقت عندما ثار الشعب ضد طوروس وضرب حصاراً حول القلعة التي أقام فيها هذا الأمير، ومن غير المعروف ما إذا كان بلدوين على اطلاع مسبق على هذه الثورة ضد أبيه بالتبني فهو لم يمد يد المساعدة له، بل على العكس نصحه بالاستسلام للمتآمرين، ووعده الابقاء على حياته، واستسلم طوروس وسجن في قصره، الذي حاول الفرار منه بعد فترة، ولكن محاولته لانقاذ نفسه كشفها سكان المدينة، الذين أمسكوا بالرجل التعيس

وقطعوه إرباً إرباً، وفي اليوم التالي دعوا بلدوين، ونادوا به حاكمهم الوحيد تحت لقب كونت الرها.

وبدأ حكمه مبشراً بالنجاح، فقد أدار بلاده جيداً بمجموعة عناصر من الدبلوماسية والقوة العسكرية، والدافع الاقتصادي، ووسعها بالفوز والتغلب أو بشراء الدويلات الصغيرة المجاورة، وتعاظم مركزه كلياً بالسير بهذه العملية، ونتيجة لذلك أخفق الهجوم المعاكس الذي شنه ضده التركي الخائف والعنيف المسمى أتابك كرنوغا صاحب الموصل وقدم اخفاق هجوم كروغا خدمة جليلة لجيش الصليبيين الرئيسي الذي كان قد وصل إلى أنطاكية في ذلك الوقت، وزادت تلك الانتصارات نفوذ بلدوين على نحو هائل، ودعمه بالاضافة إلى ذلك زواجه من الأميرة الأرمنية المحلية، ابنة رجل كان يدعى ثاتول بعدما حصلت على مهر ضخم، وخلال تلك الأثناء عمل بقدرة سياسية وإدارية في معالجة قضايا شعبه، باذلاً كل ما يستطيع ليدمج سكان مملكته الجديدة في كل واحد منسجم، حتى كانت معاملته للمسلمين المحليين تتسم بالاحترام واللطف، وهي سياسة فاجأت بعض تابعيه.

وظهر بعض الأشخاص الكارهين له، وفي مقدمتهم ناقدوه من الأرمن الذين أصبحوا متحررين من وهم ما كان يدعى بمحررهم، واستاؤوا من غطرسة فرسان (بلدوين) الذين كانوا ينزعون إلى معاملتهم على نحو أقل، وغير مقبول عرفياً واجتماعياً، كما كرهوا سياسته في استخدام المسلمين الذين كانوا مستعدين للخدمة تحت قيادته، ونتيجة لذلك، بدأ بعضهم بعد فترة بالتآمر لاسقاطه، وكانت خطتهم تدعو إلى خلعه، وتنصيب عمه الجديد الأرمني تاتول في مكانه، وإن أخفقت الخطة فانهم أملوا على الأقل في الضغط عليه لقبول تاتول كحاكم متعاون، ولكن أمر تآمرهم انكشف (لبلدوين)، الذي وجه ضربه إليهم من الخلف، بسرعة ودون رحمة، وألقي القبض على قائدي المتآمرين وجعلهما لا ينعمان بنور البصر بعدها، في حين قطعت أنوف وأرجل متآمرين آخرين، أما الباقون ممن وقعوا في الشك فقد ألقوا في السجن، كما

صودرت أموالهم: أما تاتول فتقهقر بسرعة إلى الجبال حيث أحاط به تابعوه، وهكذا أمن من انتقام صهره الهمجي.

وعندما انتشرت قصة القضاء على المؤامرة في الرها أرجاء المنطقة، انتشرت معها شهر بلدوين، ولما كانت القسوة ميزة محبوبة في الحاكم، فان أثره قد ارتفع في آفاق بعيدة إلى خلف حدود مملكته الجديدة، فقد انضم إلى الحملة الصليبية كأمير صغير لا طموحات لديه، وبعد ذلك، ها هو وحده من بين أولئك الذين اتخذوا الصليب استجابة لدعوة البابا أوربان قد أسس أول مملكة صليبية، وهو انجاز ضخم.

obeikandl.com